سوف أكون ذا شأن عندما أكبر، أتذكر يوم ماأتممت حفظ ربع القرآن اشترى لي أهلي كعكة كبيرة عليها صورتي، أصبحت جيدا في الرياضيات وأرسم مثل أخي الغيوم والشمس والأطفال، وها أنا الآن أقف أمامكم في هذا الاحتفال لأقول لكم لقد فعلتها كم أنا سعيد.

*****

القصة الثانية عشرة ـ صرخة خرساء

ميساء أقبيب

أن تكون على قيد الحياة ، لا يعني بالضرورة أن تكون حيا. أن تعيش و أنت تترقب أفواه المارين و الحاضرين أمام ناظريك، وترصد حركة أيديهم وتقرأ تعابير وجوههم، فلا أظن أن هذه تشبه الحياة في شيء سوى الاسم.

أن ترى العالم ساكنا لا حياة فيه، خاليا من كل شيء سوى الحركة؛ فأي عالم هذا ؟!

أن تجد المال مكدسا تحت قدميك، لكن لا يدفع عنك عجزك !! فما الجدوى منه؟

ولدت أحلام بعد صراع الأم مع المجتمع الذي ينظر لها نظرة الناقصة، فهي لم تكتمل أنوثتها مادامت لم تثمر زهرة تلون حياتها الرمادية. بعد أن ألحقت بها وصمة العقم لسنوات عدة؛ رزقت بأحلام لكن فرحتها بها لم تكتمل، فقد لاحظت أنها لا تستجيب لصوتها عندما تكلمها، و لا تصدر أي صوت عند فرحها أو بكائها. جامدة هي وكأنها صخرة لا حياة فيها، خالية كقصبة خرساء. أن تكون نايا تملؤك الثقوب أهون من أن تكون قصبة خرساء، لا دور لك في الحياة و لا تتقن شيئا غير التحديق في وجوه من حولك.

بدأ القلق يدب في نفس الأم فعرضت ابنتها على أشهر الأطباء المختصين من داخل وخارج البلد. لتكتشف أن حلمها في سماع كلمة "ماما" أمر مستحيل.

هي امرأة ثلاثنية، حنطية البشرة سوداء العينين رشيقة الجسم و أنيقة الملبس. تنحدر من أسرة بورجوازية، تزوجت أحمد الشاب الطموح، الرجل الثري و الوسيم الذي تتهافت عليه الفتيات. كان حلمها أن تصبح أما وعانت من أجل تحقيق حلمها،

وبعد معاناة اكتمل الحلم الناقص، رغم اكتماله إلا أنه باهت لا لون له ولا طعم و لا رائحة.

أنجبت فتاة صماء خرساء ليبقى عطشها لسماع "ماما " يتأرجح في الهواء.

كبرت أحلام و كبرت إعاقتها معها، و بدأ شعورها بالنقص يكبر كلما حاولت اللعب مع قريناتها، في كل مرة تقابل فيها بالرفض و الاستهزاء من بنات جنسها، تتقوقع على نفسها و تبكي بصمت، إن سمع صداه في الأرجاء، صمّ الأذان وهزّ الأبدان.

أصبحت أحلام فتاة يافعة ورثت الجمال عن أمها، تشبهها في كل شيء، جمالها ساحر أعمى الأعين وغيب العقول؛ وسلب قلب ابن الخادمة.

في إحدى المرات كان أحمد و زوجته خارج المنزل و ظلت أحلام برعاية الخادمة، وبينما هي تكتب بعض القصص التي تنسج فيهم عالما خاصا بها. جالسة في إحدى زوايا غرفتها الخاصة المزينة بأبهى الألوان على ذوقها. دخل على غفلة منها ابن الخادمة و أغلق الباب وراءه بالمفتاح، ولأنها صماء فلم تسمع أي صوت ولم تنتبه لأي حركة من حولها.

فاجأها بوقوفه أمامها يفترس كل جزء من جسدها بعينيه الخبيثتين. قرأت أحلام تعابير وجهه وأخافتها نظراته.

حاولت العودة للوراء لكنه باغتها وحاصرها بيديه، خافت وارتعدت فرائصها؛ كيف تدافع عن نفسها. أرادت أن تصرخ لكن أين صوتها؟ بحثت عنه و لم تجده. هنا شعرت بعجزها و حقيقة إعاقتها المرة. حاول اغتصابها، وحش كاسر استغل ضعفها و عجزها لينال بغيته والسلام، ولكن لطف الله وقدره أبى أن تكون ضحية إعاقتها.

لاحظت الخادمة غياب ابنها فذهبت تبحث عنه و عند اقترابها من غرفة أحلام، رأت ابنها من النافذة.

شلت أطرافها وركضت نحو الغرفة و فتحت الباب بالنسخة الاحتياطية للمفتاح.

-صرخت به: ماذا تفعل أنت هنا؟! واحسرتاه على عمر ضاع بتربيتك. كيف تجرأت على مثل هذا الفعل الشنيع.

أخذت أحلام معها وطردت ابنها محذرة إياه من محاولة الاقتراب من المكان ثانية.

بعد عودة والدي أحلام وجدوها تبكي بحرقة على قلة حيلتها و على أنوثتها التي كادت تضيع في لحظة طيش من ذكر.

أخبرتهم الخادمة بما كاد أن يحصل لولا لطف الله. طلبت أحلام من أمها تسجيلها بإحدى نوادي الرعاية لذوي الاحتياجات الخاصة. لم توافق في البداية لكن مع إصرار أحلام و إلحاحها وافقت، وسجلتها بأحسن نادي يضم مختصين من جميع أنحاء العالم؛ يقدمون التأهيل النفسي- للأعضاء وكذلك خدمات تعديل السلوك

والعلاج النفسي، وهناك أيضا برنامج خاص لذوي الإعاقات السمعية بحيث يتم تدريبهم على قراءة الشفاه.

تميزت أحلام في تدريباتها و أصبحت مشرفة على الأعضاء الجدد، تعلمهم لغة الإشارة وتدربهم على مهارات التفاعل الاجتماعي ليصبحوا أعضاء فعالين في مجتمعهم ليتغلبوا على إعاقتهم ويثبتوا حضورهم، فالإعاقة في الفكر و ليس الجسد.
أن تكون معاقا لا يعني أنك ناقص، وما الناقص سوى الناقص في عقله و فكره.

*****